رواية ترصد معاناة الفلسطينيين

● بيروت – تصور الكاتبة الأردنية غصون رحال في روايتها الأخيرة «في البال» الآلام الفلسطينية الطويلة والمكثفة في سرد ممتع وعمل روائي متكامل ينقل معاناة فلسطينيين تشردا وضياعا في الخارج وقتلا في الداخل.
وكأن هذه الآلام التي صنعتها أيدي البشر لا تكفي إذ أن قصة الحب التي جمعت بين بطلي الرواية اللذين تجاوزا جيلين من التشرد والغربة والاذلال –وبعد وهم الوصول الى شاطىء أمان وقسط من السعادة– أنهتها يد القدر من خلال مرض السرطان الذي أصاب الحبيبة.
وكأنه مكتوب لهذا الفلسطيني التائه ألا يحط الرحال وألا يحصل على قسط من الراحة والهناء بل الا تكون له حياة عادية كالاخرين من الناس بل عليه ان يستمر في «سيزيفية» لا نهاية لها.
وكأن التشرد من بلده لا يكفيه فالحروب والاضطرابات تلاحقه الى بلدان اللجوء فما يكاد ينشيء جذورا في مكان أو يتوهم أنه انشأ شيئا من الجذور حتى تقتلع بمرارة وقسوة.
ورواية «في البال» وهي العمل الروائي الرابع لغصون رحال منذ ١٩٩٩ صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت وجاءت في ٢٤٣ صفحة متوسطة القطع وبلوحة غلاف لفنان من قطر هو سلمان المالك.
تبدأ الرواية من النهاية أو قبيل النهاية وتعود بنا في الزمن وعبر جيلين وثلاثة أحيانا الى أيام الجيل الأول الذي عاش تهجير عام ١٩٤٨ . بعد الاهداء –وهو إلى راحل عزيز– نقرأ ابياتا حزينة للشاعر العراقي بدر شاكر السياب وفيها يقول:
«تعالي فما زال لون السحاب
حزينا... يذكرني بالرحيل
رحيل
تعالي تعالي نذيب الزمان...
ونصبح بالأرجوان شراعا وراء المدى
وننسى الغدا».
بطلا الرواية حبيبان ثم زوجان. أحدهما، أي البطل أقنع نفسه بأنه مواطن عالمي وبأنه حيث يستقر يصبح له وطن. أما هي فما زالت تحمل في نفسها لا الحنين فقط بل الاحتراق لدى مشاهدة التلفزيونات حيث تحمل إليها آلام شعبها إلى مكان حياتها الجديدة أي إلى لندن بعد سنوات من التشرد. انها على فراش الموت وقلبها هناك.

غصون رحال تقص بشعرية مؤثرة. نقرأ السطور الاولى حيث تبدأ فتقول: «وراء الباب ليل يذوي بصمت. في الخارج مطر يطرق زجاج النافذة بعنف وريح هوجاء تصر على النفاذ عبر شقوقه الجانبية مثبتة حضورها. في الجو رائحة رطوبة لزجة ترشح من ثنايا الجدار.
«في الركن مصباح معدني طويل يسعل ضوؤه العليل فتتراقص فوق جدران الغرفة البيض خيالات شاحبة مسبغة على المشهد حسا جنائزيا مبكرا. فوق السرير يسترخي جسدها نصف حي نصف ميت.
«الحرام الصوفي المرقط يلفها بوبره الغزير مغيبا ما تبقى من معالم جسدها المغيبة اصلا ورأسها الحليق يختفي تحت قبعة قطنية لا تفارقه ليلا او نهارا.»
هي هنا وعيناها بل قلبها هناك في غزة. يقول البطل «عيناي تلتقطان مشهدين متعاكسين. عين على شاشة التلفزيون وعين على وجهها الشاحب... الشاشة التي لا ترحم تواصل قصفنا بأخبار الموت والفسفور الابيض. دوي القنابل الهادر دون انقطاع منذ يومين موصلا الليل بالنهار ينذر بمجزرة محققة... تلتقط بيدها الواهنة جهاز التحكم عن بعد وتضغط على ازراره متجولة ما بين القنوات الفضائية.»
في الجولة بل الجولات على أماكن التشرد العديدة –تشرد البطلين كليهما– تنقلنا الكاتبة الى الكويت وعمان وتركيا وقبرص بشقيها والقاهرة وبيروت وأماكن أخرى.
قدرة غصون رحال على نقل المشاعر والأفكار والتفاصيل وسرد الأحداث قدرة غير عادية تتسم بالاقناع وبالتأثير في القارىء وهي لا تترك لأي من هذه العناصر كلها أن يتجاوز حده في رسم النفس البشرية فيرهق القارىء.
إنها تعرف تماما أنه إذا أصاب القارىء إرهاق فبعض ما يدل عليه هو ان الكاتب نفسه أصيب بإرهاق من نوع ما. هي هنا مثل قائد اوركسترا ناجح واذا اطالت المكوث في سردها في مكان ما فالاكيد هو ان الوضع يقتضي ذلك.
والشخصيات عندها مقنعة تشبه الحياة بل تشبه الشخصيات المحبوبة في الحياة. بعضها اي تلك التي تأتي من الجيل القديم ترسمها لنا الكاتبة اما عاطفية سهلة او عنيدة بعاطفة جياشة لكنها تبقيها داخلية فلم تتعود البوح السهل. الا انها تبوح في اللحظات الضرورية الحاسمة. وهي أيضا تشبه الحياة.
أما الأحلام فنقرأ عنها في كلام البطل عن حياتهما القادمة في لندن قبل اكتشاف الداء الذي جاءها قتالا. يقول البطل «قبل تلك اللحظة كنت على يقين من ان نهايتي... ستكون على صدرها لانني كنت قد خططت بالفعل لان امضي معها حياة طويلة تنتهي بشيخوخة هانئة كحال غالبية الناس هنا.
«وكثيرا ما كنت أغمض عيني لأانا عجوزين يتعكزان على بعضهما.. يتمشيان في ظهيرة مشمسة في انحاء حديقة عامة.. يرتاحان على مقعد خشبي حين ينهكهما التعب.. يطعمان الحمام ما يتساقط من فتات خبزهما. وما أن تغيب الشمس حتى اسبل عيني ثم القي برأسي فوق صدرها لاموت ميتة سعيدة فيما تتولى الحكومة تأمين كل ما يلزمها من مسكن وعلاج ومصاريف دفن.»
هذا ما كان يخطط له لكن الواقع كان غير ذلك. انها تموت دون ان ينفعها الطب ولا العمليات الجراحية ولا العلاج الكيميائي. تطلب منه ان يرتب الامور وينظم رحلتها الاخيرة.
عاد إلى المنزل فسألته أين كان فلم يجب. يقول لنا «هل اخبرها بأني كنت انفذ وصاياها.. ارعى موتها البهي وأعد لها مثوى ناعما وأنيقا يليق بكبريائها وصبرها.. هل اخبرها بأني كنت اتدرب على كيفية مواجهة الحياة وحيدا بعدها. هل اخبرها بأني انهيت نشيدها وبدأت نشيجي الذي سيمتد الى ما لا نهاية.. هل اخبرها بأنها وان رحلت فسوف تبقى في البال اغنية وشجرة ياسمين..»
وتنتهي الرواية على الصورة التالية وسط دموع جهد في اخفائها.. تمتمت قائلة له «بقيت لي رغبة صغيرة» وضغطت على يده وقالت «ضمني اليك.»
الختام الأخير كان كما يلي «احتويتها بين ذراعي.. قبلتها قبلة طويلة فوق شفتيها.. اسبلت على إثرها عينيها.. وما عدت أدري إن كانت ستفتحهما ثانية.»

مساحة خضراء

دبلجة المسلسلات والأفلام

فؤاد عبدالقادر

■ دبلجة المسلسلات الأجنبية من مكسيكية وتركية .. فرنسية وأمريكية .. وأيضاً الهندية ليس لها وصف محدد.
اعتبرها موضة من انتشار موضة القنوات التلفزيونية.
طيب .. اللهجة التي يتم فيها دبلجة المسلسلات والأفلام السينمائية .. المكسيكية والتركية يتم دبلجتها باللهجة الشامية .. السورية، اللبنانية .. وكيفما كانت الدبلجة.
الأمريكية والفرنسية يتم دبلجتها بالمصرية .. الأفلام الهندية .. يتم دبلجتها بالخليجية.
الحقيقية .. أنا لست ضد الدبلجة .. وإن كنت أفضل مشاهدة الأفلام، كما أنتجت بلغتها أو لهجتها الأصلية .. الانجليزية، الفرنسية، الهندية .. وأرتاح للترجمة بالعربية كتابة.
لأن الدبلجة تكون في الغالب سامجة ليس لها لون أو طعم أو شم، بلهجتها الأصلية تكون أكثر توازنا..؟

«حروب أوباما» يكشف كواليس أمريكية

■ باريس: صدرت مؤخراً بباريس الترجمة الفرنسية لكتاب حروب أوباماعن منشورات دونويل، والكتاب من تأليف الصحفي الأمريكي الشهير بوب وودوارد والذي عرف بتفجير قضية «وتر جيت» في عهد الرئيس نيكسون سنة ١٩٧٢.
و يؤكد وودوارد في كتابه أن الرئيس الأمريكي يخوض حروباً ليس خارج الولايات المتحدة الأمريكية ولكن بداخلها أيضا وبالتحديد ضد رجال البنتاجون.
قال أوباما لوودوارد ذات مرة إنني أرث عالماً من الممكن أن ينفجر في أي لحظة، وذكر الكتاب أن إدارة الرئيس الأمريكي باراك أوباما شهدت صراعات داخلية، خلال تحديد الإستراتيجية الجديدة في أفغانستان سنة ٢٠٠٩.
وأوضح المؤلف أن جنرالات الجيش الأمريكي لا يقدمون المعلومات الاستخبارية التي يطلبها الرئيس أوباما، ويسعون دائما لتضليل وسائل الإعلام، ويرغبون في فرض أفكارهم حتى على الرئيس نفسه.
وكشف وودوارد عبر الكتاب استنادا إلى وثائق سرية ومقابلات صحفية مع أعضاء كبار في الإدارة الأمريكية، من بينهم الرئيس الأمريكي نفسه، أن أوباما صرح لمقربيه أنه يرغب فعلا في الانسحاب من أفغانستان، لكنه لم يعثر على الخطة اللازمة إلى الآن.
كذلك يكشف الكتاب أن أمريكا لم تكن مستعدة البتة للتعاطي مع اعتداء إرهابي نووي في الولايات المتحدة. وشمل هذا السيناريو تفجير سلاح نووي صغير في إنديانابوليس وظهور خطر انفجار سلاح نووي آخر في لوس أنجلس.

ذكريات مكتظة بالخرير

عبدالمجيد التركي

● أمام العطش تصمدُ الأشواك وينهار الأقحوان ..يشمخُ الصبّار وينكسرُ النرجس.. يتباهى العوسجُ ويتفسّخ السوسن.. ولا ملاذ سوى استرجاع الذكريات المكتظة بالخرير.
كنتُ أطلق الرصاصَ على الغيم محاولاً ثَقْبَه ليجود بماء مسفوك لن يثنيني عن شُربه امتزاجُه بالبارود، وكم تمنيتُ أن يتساقطَ الغيمُ أشلاءً أقتاتُ بها..
● ورغم تمنياتي – المُغمّسة بإيماني المطلق بالخوارق– لم تذرف الغيمة دمعة واحدة رغم الألم الذي استقته مني والأمل الذي استسقيتها به.
● بلغ بيَ الظمأُ مبلغَ العارفين.. فشفّتْ روحي حتى رأيتُ الماءَ يتجوّل في عروق الشجر.. وتلمّستُه في بطون الجبال وقد أعْسَرَها هضمُه، ولأنها لا تدري من أين دخل كلُّ هذا الماء الذي استقرّ في رحمها – لانعدام المنفذ – فإنها لا تعرف معنى التقيؤ..
وكم تمنيت افتقاد ما تبقى من جاذبيتي لألجَ إلى أحشاء الجبل بطريقة لم يسبقني إليها أحد.
● ربما أن الجبل قرأ أفكاري – وكأنه يُجيد لغة التخاطر – فتكوّرَ حتى استقرّ على هيئة ثدي كبير تجلّت لي في ضخامته كل صور الهرّيمة.
● كانت روحي تعلن عن انتهاء الدقائق الأخيرة من الوقت الضائع الذي لن يُسعفني في نسج الحيلة التي لن أنزلق بها أثناء صعودي على ذلك الثدي الضخم وقد فاقت نعومته أثداء الجنيات اللواتي كنت أرسمهن في مخيلتي بعد أن استهلكتْ كلّ الأثداء الإنسيّة التي شاهدتها واخترعت الملايين مَنها في أحلام المراهقة المُغيّبة بين دهاليز الرعشة.
● فركتُ عينيّ المسحورتين بالعطش للتأكُّد من حقيقة هذا الثدي الذي لا يعدو أن يكون صورةً عكستها أعماقي الظمأى وقد تضاربت فيها السريالية والواقعية والتشكيلية فانصهَرَت لتكوّن ذلك الثدي، إذ لن يغطي مساحةَ عطشيَ – التي قطع الظمأ فيها هكتاراتٍ شاسعة – ما هو أقلّ منه حجماً.
● اقتربتُ منه.. تلمّستُه بيديّ الذابلتين.. فوجدت فيه من الخيال ما لا تكفي ألف ليلة وليلة لسرد ذهولي وتصوير حقيقته وتكوُّره الناعم الذي أعجز قوس قزح عن الانفراج ليحيطه بقدميه المشدوهتين!!
● لم يعد الوقت المتبقي من روحي سبباً في إحجامي عن نسج الحيلة – التي لن أنزلق بها أثناء صعودي على ذلك الثدي الضخم– إذ أن صعودي سيُمكّن الحسرة من انشطاري عندما أدرك أنني لا أمتلك فماً يستطيع الإحاطةَ والإلمامَ بحلمة الثدي الكبيرة التي تشبه فوهة البركان!!

إصدارات ثقافية

محاربة الأمية

■ الأمية هي أحد أخطر الظواهر التي تواجهها المجتمعات الإنسانية. وإذا كانت تضرب بقوة أكبر المجتمعات النامية، ومن بينها مجتمعاتها العربية، فإنها لا تزال إحدى المشاكل التي تواجهها المجتمعات المتقدمة. هذا ما يدل عليه بوضوح كتاب وزير التربية الفرنسي الأسبق لوك فيري تحت عنوان «محاربة الأمية».

إن الأمية في المجتمع الفرنسي لا تعني بالضرورة عدم القدرة على القراءة والكتابة، ولكنها تدلّ أحيانا على التلامذة الذين يترددون على المدارس. ويؤكد لوك فيري، مؤلف هذا الكتاب، أن ثلث التلامذة الذين يدخلون إلى المدرسة الإعدادية في فرنسا والنسبة نفسها من الشباب البالغين من العمر ١٧ عاما يعانون من صعوبات حقيقية في القراءة. ويضيف: «لا يمكننا أبدا أن نسمح باستمرار هذه المأساة التي تصيب أغلبية البلدان الغربية، لكن هذا ما يتم تناسيه غالبا».
«المتهمون» كُثر كما يحددهم أولئك الذين يتعرضون لموضوع الأمية. وفي مقدمتهم «طرق التعليم» و«التلفزيون» أو «سوء تكوين المعلمين» أو «نقص الإمكانيات»، الخ. لكن مؤلف هذا الكتاب يؤكد على أن الظاهرة أعمّ وأشمل وأعمق وهي تخص «تحول في العلاقات مع التقاليد» عامة. ذلك أن اللغة هي «بامتياز» تراث ينتقل من جيل إلى جيل.
و«الموضة» السائدة اليوم هي إعطاء الأولوية ل«الإبداع» على حساب «احترام الموروث». لكن «الإبداع» كما يجري تتم ترجمته عمليا في زيادة «الأخطاء الإملائية» و«عدم التقيّد بالقواعد» اللغوية.
ومن المعروف أن «مكافحة الأمية» في فرنسا حققت انتصارا بعد انتصار وبدا أن أفق عدم وجود أي أمي، بمعنى لا يعرف القراءة والكتابة، قد غدا قريبا. لكن مثل هذا التوجه بدأ بالتقهقر شيئا فشيئا منذ حوالي عقدين من الزمن.
والمنظومة التربوية الفرنسية لم تعد تتقدم منذ أواسط سنوات التسعينات، هذا إذا لم تكن قد بدأت بالتراجع. وما يفعله مؤلف هذا الكتاب بعد استعراض هذا التشخيص الذي قدمه عدد من الخبراء هو محاولة أن يبيّن المصادر الرئيسية لمثل هذه «الأميّة الجديدة».
ويؤكد في فصل أول يحمل عنوان «الأمية اليوم، التشخيص والعلاج» أن «الأمية ظاهرة اجتماعية شاملة. وهي ليست ذات خصوصية فرنسية، بل هي تصيب أوروبا كلها بل والغرب بأكمله». ولذلك ينبغي تحليل الظاهرة في إطارها العام وبالتالي ينبغي تجنّب المقولات التي تتكرر حول «الهجرة والتلفزيون» كي لا يتم اختزال الظاهرة إلى بعض جوانبها فقط.
ويؤكد المؤلف القول أنه «لا يدعو للعودة إلى الوراء» وإلى «قيم الجمهورية الفرنسية الثالثة» ذلك أن «العودة إلى مدارس الأجداد هي ضرب من العبث»، على حد تعبيره. ولن يتم حل المشاكل بالقول «أن الأمر كان سابقا أفضل».
لكن بالمقابل لن تجد حلها عبر ما يسميه المؤلف ب«الأوهام التقدمية» التي كانت مسؤولة إلى حد ما عن تخريب المنظومة التربوية الفرنسية. المطلوب هو «اختراع سبل أفضل وتهيئة سبل العودة إلى الحس الجمهورية السليم» فيما يتعلق بالميدان التربوي.
ولا يتردد المؤلف في فقد ما يسميه ب«نزعة الحداثة» من حيث أنها ولدت عدة أوهام باسم «التجديد التربوي– البيداغوجي». الوهم الأول هو المبالغة في قيمة طرق التعليم المتجددة،التي فيها شيء من الصحة، ولكن لا ينبغي أن تحل محل «الدروس الكلاسيكية الكبرى». والوهم الثاني يحدده ب«التخلي عن بيداغوجية العمل لصالح بيداغوجية اللعب».
والوهم الثالث يكمن في تصوّر أن الهدف الأعلى للتعليم والتربية هو العمل بحيث أن يزدهر كل فرد ويحقق ذاته بينما أن الأمر يتعلق بالأحرى في السماح لأطفالنا بأن يصبحوا تلامذة يرتقون بجهودهم وعملهم ليصبحوا غير ما كانوا عليه عند نقطة الانطلاق. والوهم الرابع والأخير الذي يحدده المؤلف هو التقليل من أهمية المسارات التي تقود الشبيبة نحو حالة البلوغ الحقيقية وليس الاكتفاء برفع «شعارات الشباب».
ويشرح المؤلف على مدى العديد من الصفحات الآثار السلبية التي ترتبت على اللبرالية وعلى العولمة اللبرالية على المنظومات التربوية كلها. ذلك من حيث أنها ساهمت في تخريب وتدمير «القيم التقليدية».
ويرى أن أحد مفاتيح فهم القرن العشرين يكمن في القول أن أولئك الذين أطلقوا عليهم صفة «البوهميين» من كل صنف واعتبروهم مخرّبين للنظام التربوي ولغيره ووضعوهم عامة في خانة اليسار، لم يكونوا في الواقع سوى «الذراع المسلحة» لازدهار العالم الرأسمالي وأداة التحقق الكامل لما تتم تسميته ب«مجتمع الاستهلاك». أما النسخة المتقدمة لهذا المجتمع فتجد تعبيرها في «العولمة اللبرالية».
لكن كيف يتم النضال ضد الأمية؟
إن المؤلف يحدد عدة اقتراحات ملموسة لكنها تشكل برأيه «منظومة متناسقة»، مع التأكيد على ضرورة الابتعاد عن «المواعظ الأخلاقية والعامة المتعلقة بالتأكيد على أهمية العمل والسلطة وعالم البالغين».
هو حذف «الترفيع الآلي» من صف إلى آخر، خاصة في المدارسة «الصعبة»، بمعنى التي تعاني من مشاكل تعليمية بحكم وجودها في ضواحي فيها أغلبية من المهاجرين. ذلك أن الأطفال الذين لا يحسنون القراءة في المدارسة الابتدائية سيعانون، حسب رأيه، باستمرار من صعوبات في حياتهم التعليمية.

الكتاب: محاربة الأمية
تأليف: لول الأمية
الناشر: اوديل جاكوب– باريس– ٢٠٠٩
الصفحات: ٤٢٢
القطع: المتوسط

إطلالة على ماضي الإمارات

■ أصدرت أكاديمية الشعر التابعة لهيئة أبوظبي للثقافة والتراث، الطبعة الثانية من كتاب: إطلالة على ماضي الإمارات للأديب الراحل حمد خليفة أبو شهاب، وذلك بعد نفاذ نسخ الطبعة الأولى منه خلال أقل من شهر من تاريخ الإعلان عن صدور الكتاب الذي أعلن عنه في مؤتمر صحفي كبير في ٢٨ فبراير الماضي، حيث شهد إقبالاً كبيراً من القراء بمختلف شرائحهم على اقتناء الكتاب في معرض أبوظبي للكتاب، وحقق نسبة كبيرة من المبيعات.
ويعتبر كتاب (إطلالة على ماضي الإمارات) الكتاب الثاني ضمن سلسلة الأعمال الكاملة للأديب الراحل حمد أبوشهاب، والتي حصلت أكاديمية الشعر على حقوق نشرها، حيث صدر قبله كتاب وقفات الذي نفذت طبعته الأولى بعد مرور أقل من سنة على صدور طبعته الأولى.
ويعتبر كاب إطلالة على ماضي الإمارات أحد الكتب التي أنجزها الأديب الراحل أبوشهاب ولم يتسن له إصدارها في أثناء حياته، والكتاب يحمل قيمة أدبية وتاريخية كبيرة في مجاله، فمادته تقدم مختصراً مفيداً عن ماضي الإمارات من جوانب أدبية واجتماعية واقتصادية وتاريخية وسياسية. استند المؤلف في سردها وتحليلها على ثقافته الواسعة في تاريخ الإمارات ومعايشته لمختلف المراحل التي مر بها المجتمع.
كما أن الكتاب يقدم ما يؤكد على وحدة جذور قبائل الإمارات والأسر الحاكمة فيها، وصلات القربى والنسب بينهم، وهي مادة قلما تطرقت إليها الكتب التي تحدثت عن تاريخ الإمارات وسكانها.

كما يحوي مادة ثرية عن تركيبة المجتمع القبلي في دولة الإمارات، والعلاقة بين الحاكم والشعب، كما يتطرق لبدايات التعليم النظامي في الدولة، وللأنظمة القضائية والتجارية والاقتصادية، وحياة أهل البادية والبحر، كما يستشهد بالعديد من النماذج الشعرية الفصيحة والنبطية في عدد من فصوله.